رأي في جذور الضمائر العربية

الدكتور محمد النونجي

أثبت علماء اللغات أن الضمائر من أقدم الالفاظ التى نطقها الانسان معبرا بها عن نفسه ، أو عن مخاطبه ، أو الشخص الذى يتحدث عنه . وليست اشكال الضمائر اليوم هى نفسها التى كانت منذ مئات السنين ، أى منذ اختراعها الاول . ذلك أن سنة تغيير الالفاظ تابعة للمكان والزمان والبيئة والتطوير الفيزيولوجى لحنجرة الانسان .

« ومن البديهى أن يكون الصوت « آ » اول حرف نطقه انساننا الاول فى الجزيرة العربية . ولهذا فانه استخدمه فى النداء والاستغاثة والترحم والتنبيه والحث والضجر والتصديق والاجابة . فاذا تألم الانسان نطق، بلا وعى منه، لفظة«آى»، واذا اراد التصديق على أمر قال « ا » أو « آ» حسب المنطقة التى نشأ فيها . واذا استفهم عن امر نطق « ايه ؟ » والهاء للوقف طبعا ؛ وهكذا » .

وبعد حين من الزمان دخل هذا الحرف مرحلة تركيب الضمائر ، وعد اساسا مهما بها . الا ترى أنهم يبدأون به فى مطلع كل ضمير ؟ فتراهم يلفظونه مفتوحا مع ضمائر الرفع : انا ، انت ، انت ، انتما ، انتم ، انتن ، ومكسورا مع ضمائر النصب : اياك ، اياك ، اياكما ، اياكم ، اياكن .

« واذا اراد العربى ان يتكلم عن نفسه لفظ الحرف «ا» واشار بيده الى نفسه واذا خاطب من امامه قال «ا» واشار اليه كما انه اذا اشار الى الغائب قال « ا » واشار باصبعه الى الخلف . ولا زالت الاشارة بالبنان تقوم مقام الضمائر حتى الآن » .

وتأتى مرحلة أبعد مدى ، واكثر تطورا ، بأن اضاف حفيد هذا الانسان نونا ، سماها بعض علماء اللغة « نون الاشارة » وآخرون « نون الوقاية » ، ولعل تسميتها « نون الانتقال » افضل فى رأينا ، لأنها تنقل معنى الضمير « ا » من عام الى خاص ، بما يلحقها من ضمير متصل آخر . ولا تعطى هذه «النون» معنى غير ما ذكرنا ، ولا قيمة لها فى التعبير . ولعل هذا الانسان اختار النون لخفتها . وكان يمكنه ان يستعمل حرفا خفيفا آخر لو ان حنجرته او ظروفه

ساعدته على ذلك ·

والذى يسهل علينا تحليل هذه النون ، وامكانية حذفها ، والبرهان على عدم اهميتها انه يمكن الوقوف عليها « للانتقال » فى بعض اللغات السامية كالعربية الشمالية والحبشية والسبئية من عربية الجنوب · ويمكن ادغامها كذلك فى لغات أخرى كالعربية والعبرية والآرامية والاشورية والاوكاريتية فيقولون âttâ بدلا من « أنت » ، و att بدلا من « أنت » · وتعلمون فى مسألة التجويد أن النون تدغم ، ويقال لها « نون بغنة » . فالعربى الذى يصادف التركيب « ومن يفعل » فانه ، ولا شك ، سيدغم النون طواعية ويقرأ : « ومِيفعل » ·

والمصريون لازالوا ينادون ابنتهم بقولهم : «اسمعى يابت» ، دون ان يلفظوا النون ، اللاذقيون فى سورية (وهم سكان منطقة أوكاريت اصلا) يقولون اليوم : « شوبك ات ؟ » من دون النون ايضا · ولم يلفظوها هكذا عبثا ، انما هذا برهان أكيد على وجود لهجة خاصة كانت عدد من القبائل العربية خاصة ، والسامية عامة تدغم حرف النون فى بعض الفاظها ·

وفى اللغة الزردشتية (لغة اوستا) حرفان للنون ، واحد بغنة ، وآخر بلا غنة ، ولكل واحد منها رسم خاص ، ومنطلق صوتى من الحنجرة (انظر كتابنا المجموعة الفارسية : 62) ·

والانكليز عندما يريدون تنكير كلمة ما يضعون قبلها الحرف الصوتى «a» مثل : a man اما اذا كانت الكلمة النكرة مبدوءة بحرف صوتى آخر ، فانهم يضيفون بين الحرفين الصوتين المجتمعين حرف النون الخفيف ، خشية ضياع احدهما فى الآخر ، فيقولون : an eye ; an arm

وما الألف بعد « نون الانتقال » فى الضمير « انا » سوى فتحة مديدة · وضمير المتكلم فى الحبشية هو « ان — ânâ » بفتح النون لا مدها والشعراء العرب منذ الجاهلية ، غالبا ما يهملون الف « انا » فى العروض ضرورة شعرية · والواقع ان هذا خلاف لغوى حدث منذ الف سنة ونيف بين مدرستى البصرة والكوفة ، فالكوفيون يعتبرون الالف الاخيرة من الكلمة ذاتها ، والبصريون يعدونها مدا لفتحة ، وطالت هذه المدة مع الايام · وكان بامكان البصريين أن يغلبوا خصومهم ، ويدحضوا رايهم فيما لو كانوا يعرفون بعض اللغات السامية ·

بل ان العبريين يلفظون الضمير « أنا » هكذا Ani ، ولعل الياء عندهم هى ياء المتكلم جاءت لتأكيد الهمزة ، وتعيين الضمير · كما أن بعض القبائل العربية قديما ، وحتى الآن ، تقول : « انى » أو «آنى » ·

وفى الانكليزية برهان على أن الهمزة اصل الضمائر اذ يقولون للضمير المتكلم : i

فاذا اراد المرء مخاطبة شخص او اشخاص امامه لفظ الهمزة أولا ليدل على انه بدأ بالضمير ، ثم اضاف تاء لتعيين المخاطب ، ووضع بينهما « نون الانتقال » واترك للقارىء فرصة تحليل ذلك بنفسه :

ا + ن + ت
ا + ن + ت
ا + ن + ت + م
ا + ن + ت + ن

ثم اضاف « ميما » علامة جمع الذكور للمخاطبين ، و « نونا » علامة جمع الاناث للمخاطبات·

وقد يخالجنا الشك فى أن أصل الضمائر همزة اذا نحن تذكرنا ضمير المتكلمين « نحن » · اذ أن المرء لا يجد همزة فى هذا الضمير ، ولكن الراى أنها كانت تنطق قديما : « انو » · أى ان الهمزة ضمير المتكلم والنون للانتقال والواو للجمع ، ثم توسطتها الحاء بعد حين ، فصارت : « انحنو » · وقد ظلت تنطق فى العبرية كذلك حتى اليوم فيقولون انحن : Anahnou ولها شكل آخر هو الأقدم وهو :

« Anou » والارامية القديمة تلفظها كذلك Ennahnan والآشورية لها لفظتان هما Aninu, Anini

ولعل بعض القراء يريد أن يبادهنى بسؤاله عن « هو » و « هى » وغيرهما من الضمائر المبدوءة بالهاء ؛ وكانه يتصور انه فاز بقصب السبق ، او انه سحب ثالثة الاثافى من تحت القدر الذى طبخت فيه هذه اللغات · لا ، فان الضمير « هو » ابسط من أن نتصور ؛ وتحليله أخف ظلا بعد ان اثبتنا الحلول العلمية للهمزة ·

ذلك أن أصل « هاء » ضمائر الغائبين ايضا همزة الضمير الاول ، مكسورة او مضمومة · والغريب انها كذلك فى الانكليزية ، فقالوا : He للغائب المفرد المذكر ؛ واضافوا على ذلك الحرف « S » للدلالة على المؤنث فقالوا : She · فالضمير العربى — فى راينا — همزة مضمومة مدت مع الايام ، ثم فتحت والفتحت زائدة ، وليست من الاصل فالآرامية والعبرية تقولان Hou للضمير هو » ، و He للضمير « هى » بلا حركة فى ختام الضمير ، ونحن نقول : لا اله الا هو ، من دون فتح الواو ، خاصة فى ساعات انسجام الروح مع النفس ، والانكليز يقولون لاسم الموصول والاستفهام الدال على العاقل الغائب : Who

اما كيف صارت الهمزة هاء فالامر بسيط ، ذلك ان اللغات السامية جميعا كثيرا ما تحول الهمزة الى هاء ؛ فـ « ال » التعريف العبرية هى « هل » وليست « ال » ؛ ثم لحق اللام ادغام ، فبقيت الهاء وحدها · و « هل » كذلك لغة فى « ال » عند بعض القبائل العربية · وقد ورد لدى بعض القبائل البائدة كالصفوية (نسبة الى منطقة الصفا جنوب سورية) ان « ال » التعريف عندهم « هاء » تتلوها شدة ، والشدة عندهم دلالة على حذف اللام كالعبرية فقالوا : هجمل ويعنون الجمل ، وهشمس ويريدون الشمس· ولعل العبريين اقتبسوا ذلك عن جيرانهم الصفويين ·

وهمزة الاستفهام العربية تقوم مقامها فى العبرية هاء ، وهاء النداء العبرية تقابلها همزة النداء فى العربية ، بل ان العرب استخدموا هاء فى الاستفهام عوضا عن الهمزة ، قال شاعرهم :

وأتى صواحبها فقلن : هذا الذى
منح المودة غيرنا وجفانا ؟

وقصد قائله : اذا الذى ؟ · ولا ننسى ان الهمزة والهاء من مخرج واحد فى الحنجرة ·

والفعل « هراق » بمعنى صب ، يقول القاموس فيه : « واصله اراق » وهذا يثبت ان الهاء اصلها همزة · ونحن نقول : هيا للنداء ، واصلها ايا ، ويهيه للابل قال لها : يأياه · وهيهات لغة فى ايهات ، ويقال لها ايضا : هيهان ، وايهان ، وآيهات ، وهايهات · والفرس يقولون للضمير هو « او » ·

نصل من هذه الامثلة الى ان أصل « هو » همزة مدت ضمتها ، واصل « هى » همزة مدت كسرتها · اما الميم فللجمع فى « هم » والنون للنسوة فى « هن » ، والالف للتثنية فى « هما » ·

وخلاصة الفكرة ان اصل الضمائر السامية جميعا لفظة « ا » ، والتى دعوناها « همزة » ، ثم عرتها تغييرات ، واصابتها اضافات حتى بلغت الضمائر العربية المرحلة التى هى عليها الآن ؛ ولا مانع من ان تمر بها تغييرات اخرى ؛ تكون ضمائرنا فيها اليوم بمثابة مرحلة اخرى للتجديد والتطوير ·